أثر العهدة العمرية في دولة المماليك البحرية(٦٤٨- ٧٨٤ هـ /١٢٥٠ - ١٣٨٥ م) من خلال كتاب الذيل التام للسخاوي(ت:٩٠٢ هـ /١٤٩٧م)

الباحث

د. محمد يونس فلح القصاب

mohammedyfh55@uomosul.edu.iq

ملخص البحث :

يعد السخاويّ (ت:٩٠٢ هـ /١٤٩٧م) من العلماء المشهورين في مؤلفاتهم العلمية المختلفة في فنونها ، فكان من ضمن ما تناولنا من مصنفاته كتابه الذيل التام على دول الإسلام للذهبي ، فهو كتاب مكملً لحوادث تاريخية تناولها العالم الجليل الذهبي ، أما ما يتعلق بالبحث وعنوانه فكان الهدف منه هو معرفة ما تم تطبيقه من شروط العهدة العمرية في دولة المماليك البحرية بعد اعلان السلطان المملوكي العمل بالعهدة العمرية وذلك من خلال تطبيقات جرت على أهل الذمة في معاملاتهم من قبل حكام الدولة المملوكية وادارتها، فالغاية من ذلك هو معرفة وايضاح فكرة العهدة العمرية وايضاحها وبيان مدى فاعليتها في هذه المرحلة التاريخية من عهد الدولة المملوكية البحرية .

Abstract

Al-Sakhawi was one of the most famous scholars in their various scientific works in the field of art. Among his works was the book of the full tail on the Islamic countries of gold. It is a book that complements the historical events that took place in the golden world. The old age in the Mamluk maritime state after the declaration of the Mamluk Sultan to work on the conditions of age through the applications carried out by the people of the Dhimmah in their transactions by the rulers and management of the Mamluk state, the purpose is to know and clarify the idea of the Umayyad custody and effectiveness in this historic period of the era State Mameluke Navy

المقدمـــــــــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الانبياء والمرسلين..... وبعد

عرف عن السخاوي(ت:٩٠٢ هـ /١٤٩٧م) بأنه عالم جليل أشتهر بعلوم ومصنفات عديدة ،منها: معرفته بعلوم الحديث والتفسير والأدب والتاريخ وغيرها من العلوم التي نال من خلالها شهرة علمية شاعت بين كل العلماء ، ولا يخفى أن للسخاوي رحلات علمية عديدة نال من خلالها علوم شتى وكان لها الأثر البالغ في تأليفه العديدة من المصنفات والتي قاربت على المائتي مؤلف وكان من بينها كتاب الذيل التام والذي تناول فيه احداث تاريخية شملت وقائع وأخبار قسمت على شكل تسلسل زمني مع ذكر حوادث وتراجم قصيرة لبعض العلماء الأجلاء .

فالعهدة العمرية تعد من الوثائق والقوانيين المهمة التي ارتكزت عليها دعائم حقوق وواجبات الانسان في اطار مفهوم الامة المكون من فئات اجتماعية عديدة، وليس هذا ببعيد اذ وضع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الصحيفة في المدينة المنورة والتي ضمت مكونات اجتماعية عديدة في البلد الواحد . فقد اعطت الوثيقة صورة مشرفة بل مشرقة ارتقت فيها مرتقاً عالياً في التعامل مع الاخرين من اهل الذمة ، فالبنود وضحت الرحمة والتسامح وحب التعامل مع غير المسلمين ، فقد وثق الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه في هذه الوثيقة الواجبات والحقوق المتعلقة في التعامل بين المسلمين الفاتحين وبين اهل الذمة المستوطنين متمثلة بمبادى الاسلام وعلاقاته مع بقية اصحاب الديانات الاخرى . فالوثيقة اوضحت مدى اهمية الانسجام والتفاعل ضمن مفهوم اطار الامة الواحدة القائمة على الامن والسلام واعطاء الحقوق .

اما المنهج في الدراسة فقد اختير المنهج السرد الاستقصائي القائم على جمع النصوص المتعلقة بالبحث والتحليل.

أما الغاية من اختيار الموضوع ، فهو معرفة الإجراءات التطبيقية للعهدة العمرية التي أعلن عنها الحاكم المملوكي على أهل الذمة، وهل أن الشروط العمرية قد فعلت بالصورة الصحيحة، أم لم يكن لها اثر في هذه المرحلة ، كما شمل البحث على تقديم صورة موجزة عن العهدة العمرية وشروطها ويليها جانباً من الدولة المملوكية الأولى، أما بخصوص نصوص أهل الذمة (النصارى) وورودها في كتاب الذيل التام، فقد استقرئت بصورة دقيقة ولا سيما النصوص ذات العلاقة بموضوع البحث .

نبذة عن سيرة السخاويّ

أسمه ولقبه وكنيته : وهو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان ، ابن الزين ابي محمد السخاوي القاهري الشافعي ، لقب بشمس الدين وكنيته أبو الخير وأبو عبد الله [١].

ولادته : ولد بمدينة القاهرة في شهر ربيع الأول سنة (٨٣١ هـ / ١٤٢٨ م) [٢] في منطقة علي الدرب القريبة على شيخ الإسلام البلقيني ، في أسرة أصلها من بلدة سخا من أعمال الغربية ، وأستقرت في القاهرة [٣] .

نشـأته العلميـة : بـدأت نشـأته العلميـة فـي مرحلـة مبكـرة مـن عمـره فأدخلـه أبـوه أول الأمـر عنـد المـؤذن عيسـى بـن احمـد الناسـخ [٤] فبقـى عنـده مـدة قصـيرة ، ثـم اخـذ بحفـظ القـرآن علـى شـيخه الفقيـه الصـالح البـدر الحسـين بـن احمـد [٥] ثـم درس علـم التجويـد وقـراء الحـديث علـى يـد شـيخه المفيـد النفـاع محمد بــن احمــد الضــرير[٦] وقابـل العديـد مـن أهـل العلـم وأخـذ عـنهم مختلـف العلـوم والفنـون فقـد درس

---

[١] شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر ، تحقيق : ابراهيم باجس ، دار ابن حزم ، ط١ (بيروت : ١٩٩٩) ، ١٠/١ ، الضوء اللامع قبل القرن التاسع ، دار مكتبة الحياة ، (بيروت : د. ت) ، ٢/٨ ، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، دار المعرفة (بيروت : د. ت) ، ٢ / ١٨٤ ؛ خير الدين بن محمود بن محمد الزركلي ، الأعلام ، دار اعلم للملايين ، ط ١٥ ، (بيروت : ٢٠٠٢) ، ٦ / ١٩٤ .

[٢] السخاوي ، الجواهر والدرر ، ١٠/١ ؛ الضوء اللامع ، ٢/٨ ؛ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، نظم العقيان في أعيان الأعيان ، تحقيق : فيليب حقي ، المكتبة العلمية ، بيروت : (د . ت)، ١٥٢/١؛ عبد الحي بن احمد بن محمد ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق : محمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير ، ط١ ، (بيروت : ١٩٨٦م) ، ٥٤٨/٢ .

[٣] السخاوي ، الجواهر والدرر ، ١٠/١ ، الضوء اللامع ، ٢/٨ الزركلي ، الأعلام ، ٦/ ١٩٤ ؛ عادل نويهض ، معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر ، مؤسسة نويهض ، ط٣ ، (بيروت : ١٩٨٨ م) ، ٥٤٨/٢ .

[٤] عيسى بن احمد الناسخ : أشتهر بتجويد القرآن والكتابة لمن أعرف بالناسخ ونسخ بخطه خمس مائة مصحف ، وعرف بأنه كان مؤدب الأطفال ، فكان مؤدباً للسخاوي وتعلم عنده القراءة في الصغر من عمره ، توفي سنة ٩٦٥ هـ .ينظر : السخاوي ، الضوء اللامع ، ٦/ ١٥٠ .

[٥] البدر حسين بن احمد : وهو صهر السخاوي تعلم عنده قراءة القرآن الكريم وصلى به صلاة التراوح مع الناس . ينظر : السخاوي ، الضوء اللامع : ٢/٨ .

[٦] المفيد النفاع محمد بن احمد : أحد العلماء الذين سمع على يديه عدد من الفضلاء والطلبة وتعلم منه آداب التجويد والقراءة .

اللغــة ، والنحــو والفقــه والعــروض ، والحســاب والأصــول ، والتفســير ، والمنطــق ، والميقــات ، فكانــت لتلــك المواهــب والملكــة العلميــة والمقــدرة العاليــة فــي تلــك الفنــون ، أن أجــاز لــه الكثيــر مــن العلمــاء والشيوخ بل منح له الإفتاء ولم يبلغ العشرين من عمره [٧].

فكانت بداية حياته العلمية مع أبيه إذ هو طفل عمره ثمان سنوات يذهب مع والده الى مجالس العلماء لتلقي العلوم ، إذ يذكر السخاوي علاقته بشيخه ابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢ هـ) قائلاً : " وقبل ذلك كله سمع مع والده ليلا الكثير من الحديث على شيخه .... ابن حجر وكان أول ما وقف عليه من ذلك في سنة ثمان وثلاثين ، وأوقع على قلبه محبته ، فلازم مجلسه وعادت عليَ بركته في هذا ... حتى جمل عنه علماً جماً وأختص به كثيراً بحيث كان من أكثر الآخذين عنه ..... " (٨) فقد تلقى ودرس عليه علم التاريخ والحديث والتراجم .

ولم يكن ابن حجر العسقلاني هو الشيخ الوحيد الذي درس وأخذ عنه العلم ، فقد درس على كثير من وشيوخ عصره وقد بلغ عددهم أكثر من ٤٠٠عالم وشيخ (٩) ولكن شيخه وإمامه المفضل كان ابن حجر.

رحلاته : بدأ السخاوي رحلة جديدة في التلقي وذلك من خلال الرحلة في طلب العلم خارج مصر ، فقد أرتحل الى العديد من البلدان لنيل العلم ففي داخل مصر كانت له رحلة في مدن ، منها: الرشيد والمنصورة ، ودمياط ، ثم أرتحل بعد ذلك الى مكة المكرمة ، وبلاد الشام وبيت المقدس ومدينة نابلس واخذ من علمائها الكثير وسمع منهم . فكان يسمع ويدرس ويقرأ على علماء تلك العواصم والمدن [١٠] حتى وصف لنا الكثير ما تلقاه من العلوم فقال " أجتمع له في هذه الرحلة من الروايات بالسماع والقراءة ما يفوق الوصف " [١١] فكانت لرحلته الى دمياط أن سمع منها من بعض المسندين .

ينظر : السخاوي : الضوء اللامع ، ٢/٨ .

[٧] السخاوي ، الضوء اللامع ، ٥/٨، ٩؛ الشوكاني ، البدر الطالع ، ١٨٤/٢ .

[٨] السخاوي ، الضوء اللامع ، ٥/٨ .

[٩] الشوكاني ، البدر الطالع ، ١٨٤/٢.

[١٠] الشوكاني ، البدر الطالع ،١٨٤/٢؛ نويهض ، معجم المفسرين ، ٥٤٨/٢ .

[١١] السخاوي ، الضوء اللامع ، ١٠/٨ .

أما رحلته الى مكة فقد أدى فريضة الحج، وانشغل فيها بقراءة عدد من المؤلفات على يد عدد من العلماء في مكة، وكذا رحلته الى المدينة في أثناء توجهه الى الحجرة النبوية الشريفة[١٢].

مصنفاته : بدأ السخاوي في التأليف والتصنيف قبل أن يبلغ الخمسين من عمره [١٣] فله تراث حافل يدل عن مدى نشاطه وغزارة مادته وعلومه ، فقد اقتصرنا في ذكرها ايجازاً؛ لأن ذلك يستغرق صفحات طوال لتثبيت مصنفاته وله مؤلفات عدة، منها :

١. التبر المسبوك في ذيل الملوك . وهو المؤلف في علم التاريخ .

٢. رفع الأجر عن قضاة مصر وهو في تراجم القضاة المصريين [١٤]

٣. الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع . وهو في عدة مجلدات لتراجم علماء وقضاة ورواة وشعراء وأدباء وخلفاء وملوك [١٥] .

٤. فتح المغيث بشرح ألفية الحديث . أيضاً في علم الحديث

٥.المقاصد الحسنة غي الأحاديث المشتهرة وهو في علم الحديث .. [١٦].

اقوال العلماء فيه : لقد ذكره الكثير من العلماء ممن أشادوا عليه بالثناء وذلك لرفعته ومنزلته العلمية فقد قال : عنه ابن العماد الحنبلي " انتهى أليه علم الجرح والتعديل ، حتى قيل : لم يكن بعد الذهبي أحد سلك مسلكه " [١٧] وذكر العالم الشوكاني في كتابه البدر الطالع مادحاً أياه قائلاً : " .... فهو من الأئمة الأكابر ... قال: تلميذه الشيخ جار الله بن فهد المكي ... إن شيخنا صاحب الترجمة ... والله العظيم لم أرَ من الحفاظ المتأخرين مثله ... ولا أعلم الآن من يعرف علوم الحديث مثله ولا أكثر تصنيفاً ولا أحسن ... وله

---

[١٢] السخاوي ، الضوء اللامع ، ١٠/٨ ؛ الشوكاني ، البدر الطالع ، ١٨٤/٢ .

[١٣] الشوكاني ، البدر الطالع ، ٨٢/١ .

[١٤] الشوكاني ، البدر الطالع ، ١٨٥/٢ ؛ الزركلي ، الاعلام ، ١٩٤/٦ .

[١٥] للمزيد عن صفحات السخاوي ينظر : الشوكاني ، البدر الطالع ، ١٨٥/٢ ؛ الزركلي ، العلام ، ١٩٤/٦ .

[١٦] الزركلي ، الأعلام ، ١٩٤/٦ .

[١٧] ينظر : شذرات الذهب ، ٢٥/١٠ .

اليد الطولى في المعرفة بأسماء الرجال وأحوال الرواة والجرح والتعديل ... " وقال عنه أيضاً: لو لم يكن له من المؤلفات إلا كتاب الضوء اللامع لكان أعظم دليل وإشارة على إمامته. [١٨] .

ولكن الشوكاني لم يكن موقفه اتجاه السخاوي بالإيجاب فقط، بل حكم عليه بالنقد السلبي ايضاً من خلال كتابه الضوء اللامع لاهل القرن التاسع في بعض تراجمه وذلك لانه ترجم لعلماء القرن التاسع وعلماء من القرن العاشر المعاصرين له، وهذا ما جعله يحط ويوقع من منزلة اكابر العلماء في عصره [١٩] يبدو ان هذه المواقف لاتعدو غريبة على العلماء المعاصرين فقد تنبعث من البعض صورا من الرشقات الغير مرغوب فيها تصل الى ردود تحمل في طياتها كلمات جارحة ، بل الامر يصل الى حد التجريح والحسد بين العلماء .

وكما مدحه صاحب المذهب السراج العبادي قائلاً وهو الذي أنعقد على تفرده بالحديث النبوي الإجماع وكان لكثرة أطلاعه لفنونه بلغ ما لا يستطاع ودونت مؤلفاته وشاع ذكرها في شتى فنونها وثبت به فنونه النفيس وتقررت ولم يخالف أحد من علمائه لأمانته بل صرح أنه المرجوع إليه به التصحيح والتحسين والتعديل والتجريح ، فرفع شأنه وعلا سموه بمزيد النعم والأفضال [٢٠] .

اما راي العالم المشهور جلال الدين السيوطي في السخاوي فقد كان له موقفاً سلبياً منه كونه معاصراً له اذ حصل بينه وبين السخاوي مُنكافات سببها ان السخاوي اتهم السيوطي بسرقة بعض مصنفاته واخذ الكتب القديمة القيمة ونسبتها اليه. لكن السيوطي رد عليه باسلوباً وضح موقفه وكلامه بطابعاً علمي ، فكتب مقامة عنوانها " الكاوي في الرد على السخاوي"، تناول فيها طروحاته لمكانة العلماء والشيوخ والقضاة والنيل منهم والوقوع بهم [٢١] .

وفاتــه : توفي في المدينة المنورة في السادس عشر من شعبان سنة ٩٠٢هـ /١٢٩٧ [٢٢] .

---

[١٨] ينظر : البدر الطالع ، ١٨٦/٢ .

[١٩] ينظر: البدر الطالع ،١٨٧/٢ .

[٢٠] عمر بن حسين : وهو عمر بن حسين بن حسن أبو حفص العبادي الشافعي ولد بمنية عباد من الغربية ، وأشتهر بالحديث ، وحفظ المنهاج ، والفية ، النحو ، وجمع الجوامع وكان يمتاز بالحفظ والفطنة . ينظر : السخاوي ، الضوء اللامع ، ٨١/٦، ٢٢/٨، ٢٣ .

[٢١] طاهر سليمان حمودة ،جلال الدين السيوطي عصره وحياته واثاره وجهوده في الدرس اللغوي ،المكتبة الاسلامية ، ط١،(بيروت: ١٩٨٩) ،ص١٧٢ .

[٢٢] الشوكاني : البدر الطالع : ٢ / ١٨٦ ، نويهض ، معجم المفسرين ، ٥٤٨/٢ .

العهدة العمرية

لهذا المصطلح تسميات عديدة ، وتأتي هذه التسميات واختلافها من ذكرها عند المؤرخين ، فقد أطلق عليها عنوان الوثيقة العمرية [٢٣] والعهدة العمرية [٢٤] والشروط العمرية[٢٥] كل هذه المصطلحات والمسميات تنسب الى سيدنا عمر بن الخطاب(ت:١٣ هـ) رضي الله عنه عند عقد عهداً سمي صلحاً مع أهل إيلياء[٢٦] وعلى أثره دخلت هذه المدينة في كنف المسلمين في عهد عمر بن الخطاب . وذكرت لفظة العهد في آيات قرآنية منها قوله تعالى ((وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا)) [٢٧] .

والعهد هو الزام الطرف المعهود اليه الحفاظ على بنود العهد والمواثيق ، أي كل من دخل من غير المسلمين تحت حماية المسلمين ، فالعهد معناه الحفاظ ورعاية الحرمة والحق ، وايضا الأمان واليمين يحلف بها الرجل على عهد الله [٢٨] .

تدوين العهدة العمرية

كُتبت العهدة العمرية في سنة (١٥ هـ / ٦٣٠ م) ، وذلك بعد ان ارسلت الجيوش الإسلامية الى مدينة إيلياء (بيت المقدس) بأمر من الخليفة عمر الفاروق (رضى الله عنه) بعد أن ارسل إليه ابو عبيدة عامر بن الجراح (ت:١٨ هـ) رسالة مفادها بأنه قد أجمع على فتح إيلياء [٢٩] فاستشار الخليفة عمر الناس

---

[٢٣] احمد بن ابي يعقوب بن جعفر اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ، (بيروت : د : ت) ، ج ٢/ ١٤٧

[٢٤] محمد بن حبان بن احمد البستي ، الثقات ، دائرة المعارف العثمانية ، ط١ ، (حيدر آباد : ١٩٧٣) ، ٢ / ٢١٣ ، السيرة النبوية واخبار الخلفاء ، دار الكتب الثقافية ، ط٣ ، (بيروت : ١٩٩٧) ، ٢ / ٤٧٣ ؛ سليمان بن موسى بن سالم الحميري ، الأكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، (بيروت :٢٠٠٠) ، ٢ / ٣٠٢ .

[٢٥] محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، دار التراث ، ط٢ ، (بيروت ١٩٦٧) ، ٣ / ٦١٠ ؛ محمد بن ابي بكر بن ايوب ابن قيم الجوزية ، احكام أهل الذمة ، تحقيق: يوسف بن احمد شاكر بن توفيق ، رمادي للنشر ، ط١ ، (الدمام : ١٩٩٧) ، ٣ / ١٢١٦ ، ١٢٣٧ .

[٢٦] وهو اسم اطلق على مدينة بيت المقدس وهي دلالة على بيت الله المسجد الاقص ،لذا سميت ببيت المقدس. ينظر: شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان ، دار صادر ،ط٢،(بيروت : ١٩٩٥) ،٢٦٣/١.

[٢٧] سورة الأحزاب ، الآية : ١٥.

[٢٨] ابو عبد القاسم بن سلام ، غريب الحديث ، تحقيق : محمد عبد المعيد ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، ط١ ، (حيدر آباد : ١٩٦٤) ، ٣ / ١٣٨ .

[٢٩] محمد بن عمر بن واقد الواقدي ، فتوح الشام ، دار الكتب العلمية ، ط ب١ ، (بيروت : ١٩٩٧) ، ١ / ٢٢٧ ؛ الطبري

حول هذا الأمر فكان الرأي من علي بن أبي طالب (عليه السلام) بان يتوجه ابو عبيدة الى بيت المقدس وإذا أتم فتحها فليتوجه الى قيسارية فإنها فتح بيت المقدس بوابة للقيسارية ، هذا ما أخبرني به رسول الله فكتب الخليفة عمر بن الخطاب(رضى الله عنه) الى ابي عبيدة ((بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب الى عامله بالشام ابي عبيدة .... قد ورد عليَ كتابك وفيه تستشيرني في أي ناحية تتوجه اليها وقد أشار ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم بالسير الى بيت المقدس فإن الله يفتحها على يديك والسلام عليك)) [٣٠] .

توجه أبو عبيدة الى أسوار إيلياء وكانت المدينة قد تحصنت ففرض عليها حصاراً دام اربعة اشهر ، لكن المقاومة كانت اشد من الحصار وزاد هذا الأمر صعوبة ان داهم المسلمين فصل الشتاء فكانت المشقة اعظم على المسلمين [٣١] بالتأكيد هذا الأمر ذاقه أهل ايلياء فالحصار كان له اثرً سلبيً عليهم بعد فرار أبرز قيادات المقاومة وهما (الارطبون والتذراق) ، ففرض ابو عبيدة شروط الصلح وهي الأسلام أو الجزية أو الحرب ، لكن موقف البطريرك ايلياء ومن معه أن تتميز يستلم هذه المدينة عن بقية مدن الشام وذلك لخصوصيتها الدينية .

وقد أرادوا أن يكون توقيع الصلح من أعلى سلطة في الدولة متمثلة بالخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ، كي يكون التوقيع على الصلح لا رجعة فيه ويضمن لأهل المدينة حقوقهم فابلغَ الخليفة بطلب أهل المدينة بخصوص هذا الأمر فاستجاب الخليفة بعد مشاورة كبار أهل المدينة فتوجه صوب الجابية [٣٢] ومكث فيها عشرين يوما جرى خلال توجيه ومعالجة بعض الاشكالات التي خلفتها فتوحات بلاد الشام ومعالجتها . أما ما يخّص تدوين العهدة العمرية فقيل: أنه كُتبت وهو في الجابية وجاء اهل إيلياء وصالحوه

، تاريخ الرسل ، ٣ / ٦٠٧ .

[٣٠] الواقدي ، فتوح الشام ، ١ / ٢٢٠ ؛ ابو بكر ن عبد الله بن ايبك ، كنز الدرر وجامع الغرر ، تحقيق : محمد السعيد جمال الدين ، عيسى البابي الحلبي ، (القاهرة : ١٩٨١) ، ٣ / ١٩٠ ، ١٩١ ؛ ابو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير ، البداية والنهاية ، تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن ، دار الهجر للطباعة ، ط١ ، (القاهرة : ١٩٩٧) ، ٩ / ٦٥٥ ، ٦٥٦ .

[٣١] الواقدي ، فتوح الشام ، ٢٢٧/١ ، شمس الدين ابو المظفر يوسف ابن الجوزي ، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان ، تحقيق: محمد بركات وآخرون ، دار الرسالة العلمية ، ط١ ، (دمشق : ٢٠١٣) ، ٥ / ٢١٥.

[٣٢] الطبري ، تاريخ الرسل ، ٣ / ٦٠٨ ، ابو الحسن علي بن ابي اكرم بن الأثير ، الكامل في التاريخ ، تحقيق : عمر عبد السلام الترمذي ، دار الكتاب العربي ، ط١ ، (بيروت : ١٩٩٧) ، ٢ / ٣٢٩ ؛ ابن ايبك ، كنز الدرر ، ٣ / ١٩٠ ، ١٩١. **الجابية:** مدينة من مدن بلاد الشام قريبة على مدينة الجولان ، وفيها خطب الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ،٩١/٢.

على الجزية [٣٣] وقيل: أنهم خرجوا من حصارهم بعد معرفتهم بصفات الفاتح لهذه المدينة فكتب لهم كتاب الأمان [٣٤] وبعد ما دخل الفاروق المدينة ومعه المسلمون ودخل المسجد حيث الباب الذي دخله الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة الأسراء والمعراج وصلى فيه تحية المسجد [٣٥] .

أما ما يتعلق بنصوص العهدة العمرية وبنودها، فقد تعددت وتنوعت من مصدر الى آخر وسنقتصر في هذا الذكر على روايتين فقط ،وهما: رواية اليعقوبي(ت:٢٩٢هـ) و (الطبري:٣١٠هـ) . فقد ذكر اليعقوبي في كتابه تاريخ اليعقوبي ((.... أن أهل إيلياء سألوه ان يكون الخليفة المصالح لهم فأخذ عليهم العهد والمواثيق وكتب الى عمر فخرج الى الشام ... فنزل الجابية من ارض دمشق ثم صار الى بيت المقدس ففتحها صلحاً وكتب لهم كتابا ، بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس أنكم آمنون على دمائكم وأموالكم وكنائسكم لا تسكن ولا تخرب إلا أن تحدثوا حدثا عاما وأشهد شهودا)) [٣٦] .

أما الرواية الثانية للطبري، فقد نصت على ((صالح عمر أهل إيلياء بالجابية وكتب لهم فيها الصلح لكل كورة كتاباً واحدا ما خلا أهل إيلياء ((بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل أيلياء من الأمان أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر مللها ، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار احد منهم ، ولا يسكن إيلياء أحد معهم من اليهود وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص ، فمن خرج منهم فإنه أمن وعليه مثلما على أهل إيلياء من الجزية ،ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبانهم فإنهم أمنوا على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبانهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أراد سار مع الروم أو رجع الى أهله ، ولا يؤخذ منهم شيء حتى يحين وقت حصادهم ، وعلى هذا عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية ، وكانت كتابة العهدة سنة ١٥ هـ [٣٧] .

أما الشروط العمرية، والتي تناولها بعض العلماء فيما يخص الأحكام الخاصة بأهل الذمة ، فقد اورد ابن القيم(ت:٧٥١هـ) ذلك النص قائلاً ((... حين قدمت بلادنا طلبنا اليك الأمان لأنفسنا وأهل ملتنا على أن

---

[٣٣] الطبري ، تاريخ الرسل ، ٣ / ٦٠٨ ؛ ابن حبان ، الثقات ،٢ / ٢١٣ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، ٤ / ١٩٣ .

[٣٤] الواقدي ، فتوح الشام ، ١ / ٢٧ ؛ الطبري ، تاريخ الرسل ،٣ / ١٠٧ ؛ ابن ابيك ، كنز الدرر ، ٣ / ١٩١ ، ١٩٢ .

[٣٥] الواقدي ، فتوح الشام ، ١ / ٢٢٧ ، الطبري ، تاريخ الرسل ، ٣ / ٦١١ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، ٤ / ١٩٣.

[٣٦] اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ٢ / ١٤٧ .

[٣٧] الطبري ، تاريخ الرسل ، ٢ / ٤٤٩ .

شرطنا لك على أنفسنا الا نحدث في مدينتنا كنيسة ... ولا نجدد ما خرب من كنائسنا ... ولا نكتم غشا للمسلمين ولا نضرب بنواقيسنا الا ضربا خفيا في جوف كنائسنا ... ولا نظهر النيران معهم في أسواق المسلمين ولا نجاورهم بالخنازير ولا بيع الخمور ولا نتشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر .... ونشد الزنانير ... ولا نركب السروج .... ولا نتقلد السيوف وأن نوقر المسلمين في مجالسهم ... ولا نطلع عليهم في منازلهم)) [٣٨] .

فقد مثلت هذه العهدة أو الوثيقة العمرية صورة واضحة نالت سمة ومكانة عالية فقد ارتقت مرتقى حفظت حقوق اهل الذمة واعطي لهم الحرية والامان مع اهلهم وفي معاملاتهم مع المسلمين . ففي الوثيقة صورة بل صفحة واضحة المعالم تتمثل في كيفية التعامل مع من خالفهم في تعاليمهم .فقد اشتمل الاسلام على الحريات بأنواعها ضمن ضوابط لأتخالف الشرع فقد اعطاهم الامان على انفسهم واهلهم واموالهم ودورهم وكنائسهم، رغم ان كفة المسلمين هي الراجحة في هذا الموقف ولهم الرفعة والمكانة والعلو والانتصار على نقيض موقف اهل إيلياء فكانوا اهلها في موقف ضعف وانهزام. فالوثيقة عرفت الاسلام بانه دين التسامحُ والتعايُش السلمّي مع غيره فقّدم الخليفةُ عمرُ بن الخطاب (رضي الله عنه) مثالاً رائعاً وأُنموُذجاً اخلاقياً سامياً يتماشى مع ما أرادهُ أهل إيلياء وقبل ذلك ما ارادهُ المنهج القرآني والنبوي فكان الاتفاق واضحا وجليا لدى الطرفين فالعهدة إذا ما طبقت بنودها فلن يكون هناك خلافٌ بين أهل الذمة النصارى مع المسلمين ؛لأن روح تعاليم العهدة قد جعلت للنصارى حقوق والتزامات لا خلاف عليها مع المسلمين .

دولة المماليك البحرية

(٦٤٨- ٧٨٤هـ /١٢٥٠ - ١٣٨٥ م)

[٣٨] عبد الله بن احمد بن قدامة المقدسي ، المغني في فقه الامام احمد بن حنبل الشيباني ، دار الفكر ، ط١ ، (بيروت : ١٤٠٥) ، ٩ / ٢٨٢ ؛ ابو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الدمشقي ، أحكام أهل الذمة ، رمادي للنشر ، ط١ ، (الدمام / ١٩٩٧) ، ٣ / ١١٥٩ – ١١٦٠ .

شهدت أوضاع القرن السابع الهجريّ السياسة في مصر وبلاد الشام ، ظهور بوادر قيام دولة جديدة سميت بالمماليك [٣٩] البحرية (٦٤٨ – ٧٨٤ هـ / ١٢٥٠– ١٣٨٥م) وترجح أصولهم على الغالب من الأتراك والقوقاز والقفجاق ، واختلفت مصادر اقتناءهم منها عن طريق الهبات والشراء ، والأسر في الحروب [٤٠] .

وكان من السلاطين الذين عمدوا إلى الاعتماد على المماليك والإكثار منهم ، هو السلطان نجم الدين أيوب (٦٣٧– ٦٤٧هـ /١٢٤٠–١٢٤٩م) [٤١] فقد أتخذ لهم مقراً حيوياً في جزيرة الروضة [٤٢].

فكان الواقع من أتخاذ المماليك قوة له ، هو إدراكه بتفرد بعض الفرق العسكرية من الجيش الأيوبي عليه ، فعزل بعض الأمراء ، وتولى محلهم أمراء أتراك [٤٣] .فأثبت المماليك الأتراك مقدرتهم العسكرية أمام

---

[٣٩] المماليك : أسم مفعول مشتق من الفعل ملك ، ويقابله في اللغة العبد . للمزيد ينظر : عمر بن مكرم بن منظور ، لسان العرب ، (بيروت :١٩٥٦ م) : مج ١٠/ ٤٩٣ . ويعود بداية تكوين المماليك في الدولة العربية الإسلامية إلى القرن الأول الهجري ، وذلك من خلال الفتوحات العربية الإسلامية التي بلغت بلاد ما وراء النهر . ينظر : محي الدين بن عبد الظاهر تشريف الأيام والعصور في مسيرة الملك المنصور ، تحقيق : مراد كامل ، مراجعة : محمد علي النجار ، ط١ ، (القاهرة : ١٩٦١م)، ص٣٥ .

[٤٠] ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام ، ص٣٥ ؛ احمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، مؤسسة شباب الجامعة ، (الأسكندرية : ١٩٨٢ م) ، ص١٦ ؛ شتور، التاريخ الأقتصادية والأجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى ، ترجمة : عبد الهادي عبلة ، (دمشق : ١٩٨٥م) ، ص٣٧٠ ؛ فيليب حتي ، وآخرون ، تاريخ العرب المطول ، ترجمة : ادوارد جرجي وجبرائيل جبور ، (بيروت : ١٩٦٥م) : ٢/ ٧٩٣ .

Stanly Lohe – pool,Histor /Of the Egpt in middle Ages , (London : 1968),p 242 .

[٤١] جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، مفرج الكروب في أخبار النبي أيوب ، تحقيق : حسين محمد ربيع ، (القاهرة : د. ت)، ٥ / ٢٧٩ ، ٢٨٠ ؛ محمد بن احمد بن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق : محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (القاهرة : ١٩٨٢ م) ، ١ / ٣٠٦ –٣١٣.

[٤٢] ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام ، ص٣٦٠ .

[٤٣] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبد وديوان المبتدأ والخبر أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، دار القلم ، (بيروت : ١٩٨٤ م) ، ٥ / ٣٧٣.

الأحداث والظروف ؛ فالتصدي للغزو المغولي في بلاد الشام في موقعة عين جالوت [٤٤] والغزو الصليبي في مصر [٤٥] .

وكانت بوادر تلك الانتصارات بداية لظهور دولة المماليك البحرية على الرغم مما ساد الدولة من فرقة وانقسام ، واضطراب سياسي في أغلب الأوقات لكن الهدف من تلك النزاعات السياسية هو الوصول إلى السلطة بها بلغت الأحداث ".

فقد تعاقبت على السلطة سلاطين مشهورين ومنهم شجرة الدرّ (٦٤٨هـ / ١٢٥٠م) والتي كانت أول من ملك من السلاطين الترك الحكم[٤٦] ثم تولى بعدها عز الدين آيبك (٦٤٨هـ / ١٢٥٠- ١٢٥٧م) [٤٧] ثم أستولى على الحكم ابنه نور الدين علي الذي تلقب بالملك المنصور (٦٥٥ – ٦٥٧هـ / ١٢٥٧- ١٢٥٩م) وكان صغير السن قاصراً لا يدرك أمور السلطة ، فكانت مدة حكمه غير مستقرة ، فاستغل قطز تلك الظروف وتولى السلطة في مصر بعد خلعه المنصور سنة (٦٥٧هـ / ١٢٥٩م) ولقب بالملك المظفر [٤٨] .

ثم تولّى الحكم بعده سلاطين عدة ،" كان آخرهم السلطان الصالح زين الدين حاجي بن شعبان الذي تولى الحكم وعمره ست سنوات (٧٨٣- ٧٨٤ هـ / ١٣٨١- ١٣٨٢م) [٤٩] وبانتهاء حكمه تنتهي مرحلة

---

[٤٤] عين جالوت : تقع عين جالوت بين منطقة بيسان ونابلس ودارت رحى الحرب منها سنة (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) بين المماليك بقيادة قطز ، والمغول بقيادة كتبغا ، وبذل المماليك جهداً على المغول وقاتلوهم أشد قتال حتى صارت كفة الميزان لصالح المماليك . ينظر:عماد الدين أبي الفداء بن كثير ، البداية والنهاية ، مكتبة الصفاء (القاهرة : ٢٠٠٣ م) ، ١٣ / ١٨٧ – ١٨٩) ؛ رشيد الدين فضل الله الهمذاني، جامع التوراريخ ، دار أحياء الكتب العربية ، (القاهرة : د . ت) ، ١، ٢/ ٣١٣ ، ٣١٤ .

[٤٥] عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق : محمد محي الدين ، مطبعة السعادة ، (القاهرة : ١٩٥٢ م) ، ص٤٤١ .

[٤٦] تقي الدين أبي العباس احمد المقريزي ، السلوك لمعرفة دولة الملوك ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، (بيروت : ١٩٩٧ م) ، ١/ ٤٥٩ .

[٤٧] احمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق : عبد القادر زكار ، وزارة الثقافة ، (دمشق: ١٩٨١ م) ، ٣ / ٤٩٧ ؛ المقريزي ، السلوك ، ١ /٤٦٤ .

[٤٨] ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣ / ١٨٤ ؛ عاشور ، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، دار النهضة العربية ، (القاهرة : ١٩٦٢ م س) ، ص٨٣ .

[٤٩] المقريزي ، السلوك ، ٥/ ١٤ ، ١٨ ؛ جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردى ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر

حكم دولة المماليك البحرية . لذا فقد حكم بلاد الشام ومصر واقعاً سياسياً أمتاز بالتنافس غير السلمي للوصول الى سدة الحكم ، وهذا ما أدّى إلى خلق نوعٍ من الفوضى والإرباك السياسي ، ورغم كل تلك الاحداث الا ان البلاد لم تتوقف في جوانب الحضارة العمرانية والحياة الفكرية . ولم تتأثر بالجانب السياسيّ الذي كان شاهدًا مريرًا على زوال دولة المماليك البحرية .

اهل الذمة والعهدة العمرية

الملاحظ من ذكر السخاوي لأحداث سنة (٧٤٥هـ/١٣٤٤م) أن السلطان الناصر احمد عندما توجّه الى الكرك ومعه طشتمر قبض عليه، ثم بعث به الى ايدغمش ، وكان في صحبته كاتب السّر وناظر الجيش والخيول والأنعام واستقر في الكرك منغمسا باللهو واللعب مع بقية الناس ، وكان ذلك إشارة إلى سوء أدارته في إدارة البلاد . وذاك أنه ارتكب أفعالا شنيعة ، فقد تمكن من شخصين هما طشتمر والفخري ، فضرب أعناقهم بل لم يكتفِ بذلك فقد سبى حريمهم ، ومكن منهم نصارى الكرك ففعلوا بهم كل شيء قبيح وفظيع ... [٥٠] في حين ذكرت المصادر أن

الناصر لما صحب طشتمر [٥١] والفخري [٥٢] معه كانا مقيدين في أثناء توّجه إلى مدينة الكرك فلما

وصل إليها وما هي إلا أيام حتى نكل بهما و قتلهما قتلة شنعاء [٥٣].

والقاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، (القاهرة : د.ت) ، ١٤٨/١١ ؛ رزق الله منقريوس الصفدي ، تاريخ دول الإسلام ، مطبعة الهلال ، (القاهرة : ١٩٠٨ م) ٦٦/٣ ؛ شمس الدين ابي الخير محمد السخاوي ، الذيل التام على دول الاسلام للذهبي حوادث وتراجم **(٧٤٥-٨٥٠ هـ)**،تحقيق: حسن اسماعيل مروة ، دار ابن العماد، ط١، (بيروت:١٩٩٢) ،ص٣١٩. وللمزيد عن سلاطين دولة المماليك البحرية . ينظر : المؤلفات أعلاه .

[٥٠] ينظر : الذيل التام ، ص٦٨ ؛ ابن حجر العسقلاني ، الدر الكامنة ، ١ / ٣٥٠ ، ٣٥١ .

[٥١] طشتمر : وهو الأمير سيف الدين المعروف بحمص الأخضر ، كان من أكبر مماليك السلطان الناصر ، وكان كثير الأحسان والأيثار وهو الذي أعاد بناء الحمامين بالزريبة في مدينة القاهرة وعرف بشجاعته وفراسته . للمزيد ينظر : ابن ايبك الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ١٦ / ٢٥١ ، ٢٥٢ – ٢٥٥ .

[٥٢] الفخري : سيف الدين الساقي المعروف بالفخري من أكبر مماليك السلطان الناصر ، كان حاد اللهجة مع السلطان ، وكان له مكانة عند السلطان ، رغم احتماله له . للمزيد ينظر : ابن ايبك الصفدي ، الوافي بالوفيات ٢٤ / ١٩١ ، ١٩٢ – ١٩٤ .

[٥٣] عماد الدين اسماعيل بن علي ابو الفداء ، المختصر في أحياء البشر ، المطبعة الحسينية ، ط١، (القاهرة : د . ت) ، ٤ / ١٣٨ ؛ عمر بن مظفر بن عمر بن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، دار الكتب العلمية ، (بيروت : ٢٠٠٠) ، ١٦ / ٢٥٤ ؛ ابو الفضل احمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تحقيق :

اياً كانت الأسباب التي دفعت السلطان الى قتل الاثنين معاً والطريقة التي قتلهما بها ، السؤال هنا ما الذي دفع السلطان أن يتخذ أجراًء لا يمد الى سلطانه شيء وهو منافٍ في اتباعه مع المسلمين الا وهو السبيء ، وكذا فيما يخصّ تمكين النصارى منهم ، فهذا أمرٌ قد أعان النصارى على المسلمين في قتلهم وممارسة أبشع صور التنكيل بهم وذاك ما لا ينبغي ان يفعله سلطان مع من كانوا أعوانا له ، ، فكان ذاك التدبير حُكمٌ سلبيٌ واجراء غير مناسب تجاه المسلمين ، ليس هذا فحسب فقد رفع من شأن النصارى أن أعانهم على القيام بالأفعال الشنيعة تجاه المسلمين ، كما أنه يعد أثرا سلبيا على المعاهدة العمرية التي نص عليها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وهذه الأجراء يعد سياسة سلبية في فترة حكم السلطان . فلم يمتثل السلطان لتعاليم الاسلام وفي كيفية تطبيق احكام التعامل مع اهل الذمة، ولم يتخذ من العهدة العمرية وبنودها في هذا الموضع بل اتبع سياسة منافية باتجاهها رغما انه حاكما على المسلمين.

ومما ذكره السخاويّ في حوادث سنة [٧٤٧ هـ/ ١٣٤٦م] كان السلطان الكامل شعبان بن الناصر قد تولّى الحكم ، لكن يلبغا اليحياوي قد أتفق مع الأمراء على خلعه؛ وذلك بسبب اعتقال الأمراء من دون ذرائع، فعزموا على خلعه وتمليك أخيه أمير حاجي ، أتفق مع نواب حلب وحماه وحمص وطرابلس فخلعوه وملكوا أخاه حاجي بن الناصر [٥٤] وقدم الأمير بيغرا صاحب الحجاب بمصر الى مدينة دمشق حاملاً التقليد و بصحبته العسكر وحوله النواب ، فاستقبلهم عامة الناس بالفرح وإشعال الشموع ، وكان أهل الذمة مشاركين بهذه المناسبة ومعهم التوراة (اليهود) وزينت المدينة وازدادت بهجة وفرحاً بهذا اليوم [٥٥] .

فيتبّين لنا من خلال مشاركة أهل الذمة (اليهود) في احتفالهم مع المسلمين بهذه المناسبة وهي تنصيب السلطان حاجي على الحكم ، اشارة الى أن أبناء هذه الطائفة تشارك المسلمين في مناسباتهم السياسية وربما قد تكون بأوامر من السلطة ولا سيما عند استقبال العامة للنائب الذي يحمل التقليد بهذا الأمر ، فقد كانوا يشاركون بحمل كتابهم المقدس ومعهم الشموع المشتعلة ابتهاجا لهذا الأمر ، ربما كانت بوادر هذه الظاهرة هي عدم وجود مشاعر بغيضة تجاه المسلمين لهذه الميزة السياسية ؛ فالأخوة الإنسانية أخذت طابعها الإيجابي في هذه الناحية . ولا يخفى علينا ان بنود العهدة والنابعة من الاسلام قد اعطت الحرية لأهل الذمة

محمد عبد المعيد ، مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ط٢ ، (حيدراباد:١٩٧٢) ، ١ / ٣٥٠ .

(٥٤) احمد بن علي بن عبد القادر المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، (بيروت : ١٩٩٧) ،ج٢ ٤ / ٣٥ ؛ الذيل التام ، ص٨٤ ، ٨٥ .

(٥٥) اسماعيل بن عمر بن كثير ، البداية والنهاية ، تحقيق : علي القشيري ، دار احياء التراث ، ط١ ، (القاهرة : ١٩٨٨) ، ١٤ / ٢٥٣ ، ٢٥٤ ؛ الذيل التام ، ص ٨٤ ؛ ٨٥ .

حتى في الجانب السياسي فلا بأس ان يشارك اهل الذمة في بعض الوظائف الادارية التي تتعلق بامور البلاد في نال البعض منهم وظائف واثبت مقدرته في اختصاصه.

يذكر السخاوي في حوادث سنة(٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م)أنه حدث نزاع بين المسلمين وأهل الذمة النصارى؛ وذلك بسبب أن نصرانياً من أهل الذمة كان جده مسلماً ، فحكم القاضي بحبسه ، وعلى أثرها عُطلّت الأسواق والحوانيت ووصل الأمر الى السلطان وتمت محاسبة القاضي والوالي معاً ، ومفاد ذلك الكلام أن احد القضاة أجتهد في مسألة رفعت إليه [٥٦] والقاضية أن نصرانياً ثبت أن جده كان قد أسلم فحكم بإسلام الجد، وحُبس النصراني ليسلم [٥٧] فكان هذا الأمر من قبل القاضي اجتهاداً شخصياً ،فالإسلام بعيد عن الاكراه ؛ لأنه دين واضح المعالم مستقيمة تعاليمهُ ولم يشهد للنبي محمد صلى الله عليه وسلم أو الخلفاء الراشدين ان اكرهوا أو استعملوا القوة في فرض الدين على أحد.

ولا سيما ان هذا النصرانّي مقيمٌ في بلاد الشام ومطلعٌ على أوضاع الإسلام والمسلمين ، ومن عواقب هذا الاجتهاد وعدم التأكد من الأمر الصادر إليه هو إنبثاقُ حوادث بين أفراد المجتمع فثأر على أثرها الوالي مع النصراني ضد القاضي وأطلق سراحه وكان موقف العامة أشد من ذلك فقد قاموا بهدم الكنيسة وحرقوا ما بها من صلبان وتماثيل ، وجعلوا منها مسجداً ، فألزام القاضي بلزوم إعادة بنائها من حاله الخاص لكن عالم الحنفية أكمل الدين حذر من هذا الأجراء ، بل أتخذ حل لهذه الازمة للخروج من سوء التدبير، وهو عزل الوالي والقاضي معاً [٥٨] . في حين نصت الوثيقة على عدم الاضرار بالكنائس التابعة لأهل الذمة ،وعدم هدمها او اعادة بنائها اذا ما تعرضت الى الهدم لكن في هذا الموضع استوجب بناءها لان السبب في ازالتها من عمرانها هو تكييف حكم لم يتمثل بنص شرعي او اجتهاد فيه منفعة لعامة الناس .

أما حوادث سنة(٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م) ، فقد ذكر السخاويّ الشروط العمرية في شهر جُمادي الآخرة من هذه السنة ومفادها الزام أهل الذمة بهذه الشروط العمرية ومنها ((أن لا يستخدموا شيئاً من الدواويين السلطانية والأمراء ... وأن لا تزيد عمامة أحدهم على عشرة أذرع وان لا يركبوا الخيل والبغال .... وان لا يدخلوا إلا بعلامة من جرس ... ولا تدخل نساؤهم مع المسلمات الحمام وليكن لهن حمام يخصهن وأن

---

[٥٦] ينظر : الذيل التام ، ص١٣٣ ؛ المقريزي ، المواعظ والأعتبار ، ١ / ١١٧ .

[٥٧] ينظر : الذيل التام ، ص١٣٣ ؛ المقريزي ، السلوك ، ٤/ ١٨٤ ؛ زين الدين عبد الباسط الحنفي ،نيل الأمل في ذيل الدول ، تحقيق : عمر عبد السلام ، المكتبة العصرية ، ط١ ، (بيروت : ٢٠٣) ، ١ / ٢٥٨ .

[٥٨] الذيل التام ، ص١٣٤ ؛ المقريزي ، السلوك ، ٤ / ١٩٨ ؛ الحنفي ، نيل الأصل ، ١ / ٢٥٨ .

يكون أزار النصرانية من كتان أزرق واليهودية من كتان أصفر ... ولا يكرموا غي المجالس البتة ... وأن يحمل حكم مواريثهم على الحكام الشرعية وكتب بذلك الى الممالك الإسلامية .... بحضرة العامة وقراءة الخطباء الجامع عمرو والأزهر وغيرها)) [٥٩] .

هذا النص لم يكن جديداً في تطبيقه على هذه السنة ، فكان مطبقاً من قبلُ سنة (٧٠٠ هـ / ١٣٠١ م) ولا سيما في مراحل الفتن ، فكان يفرض على أهل الذمة أزياء معينة فكان للنصارى قد حدد لهم لبس العمامة الزرقاء واليهود الملابس الصفراء والعمائم الحمراء إلى جانب تحديد انواع معينة من الدواب من أجل الركوب عليها واستعمالها [٦٠] .

وكانت لهذه الشروط أثرٌ أيجابيٌ على أصحاب اهل الذمة وعدا ذلك من الأمور التي كانت لها دافعٌ قويٌ بتحويل أفراد من أهل الذمة الى الدين الاسلامي ، فقد اسلم منهم طائفة لم يذكر عددهم وكانوا من القادة المشهورين ومنهم ، العلم داود الاسرائيلي كاتب الجيش[٦١] والرشيد بن حباسة الكركي [٦٢] المستوفي ، والعلم رزق الله [٦٣] صاحب الديوان [٦٤] .

فإسلام هؤلاء الأعلام دلالة على أن الشروط العمرية كانت منصفة وتحمل في طياتها حقوقاً تحمي أهل الذمة من التعرض لهم في كل أمورهم ، فنلاحظ الذين أسلموا كان لهم الحرية الأدارية في معاملاتهم في أثناء إدارة دولة المماليك فكانت توفّر لهم الرعاية والحماية والإنصاف وهذا ما دفع البعض منهم الى الإسلام .

كما يذكر السخاوي في أحداث سنة (٧٦٠ هـ / ١٣٥٩م) أن محمداً بن القطب أحمد المعروف بابن قطب ، كان من الأعلام المشهورين بالإدارة وكان ذات صفات مميزة منها حسن السياسة وكرامة النفس والمروءة ، وحلوة العبارة وكان شخصية تكاد تكون وحيدةٌ في بلاد الشام آنذاك فقد تولى وظيفة كتابة السر، وكان من أهل الذمة [٦٥] فالوظيفة الإدارية في الدولة المملوكية لم تقتصر على المسلمين فحسب، بل نالها

---

[٥٩] ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٤ / ٢٨٧ ، الذيل التام ، ص١٣٨ .

[٦٠] القلقشندي ، صبح الأعشى ، ١٢ / ٢٣٢ .

[٦١] لم أثر له على ترجمة .

[٦٢] لم أعثر له على ترجمة .

[٦٣] لم أعثر له على ترجمة .

[٦٤] الذهبي ، العبر في خبر ، ٤/ ١٦٢ ؛ الذيل التام ، ص١٣٨ .

[٦٥] الذيل التام ، ص١٦٩ .

أهل الذمة لكفاءة المشار إليه بالإدارة وحسن تعامله مع الاخرين وكان ذلك في عهد السلطان الناصر [٦٦] رغم رغم أن العهدة العمرية تنص: على أن لا ينال أهل الذمة أيُّ وظيفة ديوانية في السلطة . ربما كان هناك حالات يستثنى منها أهل الذمة في تولّي منصب إداري وذلك حسب ما كان يمتلكه المراد أشغاله من خبرة ومؤهلات جعلت منه يتولى تلك الوظيفة .

يذكر السخاوي في حوادث سنة (٧٦٥ هـ / ١٣٦٤م) أن منكّلي بغا النائب على دمشق كان قد أجرى بعض العمران على المدينة منها نصب جسرٍ للمشاة والركبان وجعلوا من باب كيسان الذي سُمي بالباب القبلّي على نصب الجسر [٦٧] كما جدد النائب خطبته في الجامع الذي جدد بناءه الذي كان في الأصل كنيسة قديمة لليهود ، واتخذ منها مسجداً ثم تطور بناؤُه وأصبح جامعاً [٦٨] وهذا الأمر بالتأكيد لا يخالف ولا يؤثر في العهدة العمرية التي أشير إلى تطبيقها في دولة المماليك البحرية . وإن كان الأمر يبقى على كيفية فتح المدينة صلح كان أم عنوة .

كما يذكر السخاويّ في حوادث سنة (٧٦٦هـ / ١٣٦٥م) أن أبا الفرج المقسيّ [٦٩] قد أعلن اسلامه واستبدل اسمه باسم عبد الله ، ولقب شمس الدين واستلم منصب استيفاء المماليك ثم انتقل إلى استيفاء الخاص (٧٠) .

الخاتمة

١. سادة مرحلة حكم بعض السلاطين افعالُ شنيعة لا تليق بمكانة السلطان ، ولاسيما ان السلطان يمثل السلطة الحاكمة للمسلمين فكيف به اذا اساء الى بعض من المسلمين في افعاله، سواء كانت العقوبة بحقهم او افتراء عليهم، فهذا الامر لا يعني ان يعين اهل الذمة الى التنكيل بمن اقيم عليه العقاب وهذا لم تنص عليه العُهدةُ.

---

[٦٦] ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة ، ١ / ٣٩٣ ؛ السخاوي ، الذيل التام ، ص١٦٩ .

[٦٧] ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٤ / ٣٥١ ؛ الذيل التام ، ص٢٠٣ .

[٦٨] الذيل التام ، ص٢٠٣ .

[٦٩] للمزيد من ترجمته . ينظر : المقريزي ، السلوك ، ٤ / ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٣٩١ ، ٥ / ١٠ .

[٧٠] المقريزي ، السلوك ، ٤ / ٢٧٧ ؛ الذيل التام ، ص ٢١٠ .

٢. مشاركة اهل الذمة في بعض الاحيان بالاحتفالات السياسية التي تخّص تنصيب السلطان وهو امرٌ ليسوا مكرهين على فعله، بل مشاركتهم تدلُّ على معرفتهم بان من نصب عليهم هو جديرٌ باهتمامهم ايضا.

٣. بينت الشريعة الاسلامية أنه لا يجوز اكراه احد من اهل الذمة في الدخول في الدين الإسلامي بالقوة أو العقاب فالدين الإسلامي دين تسامح بل دين تبشير لا تنفير، كما ان العهدة العمرية لم تجز ذلك على احدً، بل جعلت لهم الحرية في اختيارهم في البقاء على دينهم أو الدخول في الاسلام.

٤. أثبتت العهُدة العُمرية النابعة من السياسة الشرعية أن الاسلام منصفٌ في معاملته مع غيره من المسلمين وكان هذا الامُر واضحاً لدى اهل الذمة ،ولاسيما ممن كانوا قريبين إلى السلطة وهذا ما دفع بعضهم إلى اعتناق الدين الاسلاميّ.

٥. ان الاسلام بتشريعاته اعطى للإنسان بصورة عامة حرية الاختيار في المعاملة مع اهل الذمة من المساس بتعاليم الاسلام واخلاقيته . فقد اثبتت الوثيقة في بنودها انه هناك حقوق متنوعة لأهل الذمة متمثلة ، بالحقوق الاجتماعية والادارية والسياسية وغيرها وهذه الحقوق تطلق على العمومية لا الخصوص فالشارع قد وهب كل ذلك خلال مقاصد الشريعة الاسلامية .

٦. حق المواطنة موجود منذ عصر الرسالة فقد نظم النبي محمد صلى الله عليه وسلم حقوق وواجبات الفئات الاجتماعية في المدينة منذُ هجرته الى المدينة باعتبارهم جزء من الامة.

٧. الاسلام لا يلغي الاخر بل هو يتعامل مع كل الاقليات من اصحاب الديانات الاخرى ، فالدين الاسلامي ليس دين متسلط على احد او متطرف بل هو دين يمثل التسامح والعدالة بل هو مصدر لكل الاخلاقيات الدينية والدنيوية.

قائمة المصادر والمراجع

- القران الكريم.

اولا: المصادر الاولية.

❖ ابن الأثير ،ابو الحسن علي بن ابي اكرم(ت:٦٣٠هـ).

١. الكامل في التاريخ ، تحقيق : عمر عبد السلام الترمذي ، دار الكتاب العربي ، ط١ ، (بيروت : ١٩٩٧)

❖ ابن إياس، محمد بن احمد(ت: ٩٣٠هـ).

٢. بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق : محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (القاهرة : ١٩٨٢ م)

❖ ابن ايبك ابو بكر بن عبد الله (ت:٧٦٣هـ).

٣. كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق :محمد السعيد جمال الدين، عيسى البابي الحلبي ، (القاهرة :١٩٨١).

❖ البستي، محمد بن حبان بن احمد (ت: ٣٥٤هـ).

٤. الثقات ، دائرة المعارف العثمانية ، ط١ ، (حيدر آباد : ١٩٧٣)

٥. السيرة النبوية واخبار الخلفاء ، دار الكتب الثقافية ، ط٣ ، (بيروت : ١٩٩٧) ،

❖ ابن تغري، بردى جمال الدين أبي المحاسن يوسف (ت:٨٧٤هـ).

٦. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، (القاهرة : د.ت)

❖ ابن الجوزي، شمس الدين ابو المظفر يوسف (ت:٦٥٤هـ).

٧. مرآة الزمان في تواريخ الأعيان ، تحقيق: محمد بركات وآخرون ، دار الرسالة العلمية ، ط١ ، (دمشق : ٢٠١٣)

❖ ابن حجر ،شهاب الدين ابي الفضل احمد(ت:٨٧١هـ)

٨. الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ، تحقيق : ابراهيم باجس، دار ابن حزم، ط١(بيروت :١٩٩٩).

٩. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تحقيق : محمد عبد المعيد ، مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ط٢ ، (حيدراباد:١٩٧٢).

❖ الحموي ، شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله(ت: ٦٢٦هـ).

١٠. معجم البلدان ، دار صادر ،ط٢،(بيروت : ١٩٩٥) .

❖ الحميري ، سليمان بن موسى بن سالم (ت:٦٣٤هـ).

١١. الأكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، (بيروت :٢٠٠٠)

❖ الحنفي، زين الدين عبد الباسط (ت: ٩٢٠هـ).

١٢. نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق : عمر عبد السلام ، المكتبة العصرية ، ط١ ، (بيروت : ٢٠٠٣)

❖ ابن خلدون ،عبد الرحمن بن محمد (ت: ٨٠٨هـ).

١٣. تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبد وديوان المبتدأ والخبر أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، دار القلم ، (بيروت : ١٩٨٤ م)

❖ السخاوي ،شمس الدين ابي الخير محمد (ت: ٩٠٢هـ).

١٤. الذيل التام على دول الاسلام للذهبي حوادث وتراجم **(٧٤٥-٨٥٠ هـ)**،تحقيق: حسن اسماعيل مروة ، دار ابن العماد، ط١، (بيروت:١٩٩٢).

١٥. الضوء اللامع لاهل القرن التاسع ، دار مكتبة الحياة ، (بيروت : د. ت)

❖ ابن سلام، ابو عبد القاسم (ت: ٢٢٤هـ).

١٦. غريب الحديث، تحقيق :محمد عبد المعيد، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ط١،(حيدر آباد :١٩٦٤)

❖ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر(ت: ٩١١هـ) .

١٧. نظم العقيان في أعيان الأعيان ، تحقيق : فيليب حقي ، المكتبة العلمية ، بيروت : (د . ت)

١٨. تاريخ الخلفاء ، تحقيق : محمد محي الدين ، مطبعة السعادة ، (القاهرة : ١٩٥٢ م) .

❖ الشوكاني ،حمد بن علي بن محمد بن عبد الله (ت: ١٢٥٠هـ).

١٩. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، دار المعرفة (بيروت : د. ت)

❖ الطبري ،محمد بن جرير بن يزيد(ت: ٣١٠هـ).

٢٠. تاريخ الرسل والملوك ، دار التراث ، ط٢ ، (بيروت ١٩٦٧) ،

❖ ابن عبد الظاهر، محي الدين(ت:٦٩٢هـ).

٢١. تشريف الأيام والعصور في مسيرة الملك المنصور ، تحقيق : مراد كامل ، مراجعة : محمد علي النجار ، ط١ ، (القاهرة : ١٩٦١م)

❖ ابن العماد الحنبلي ،عبد الحي بن احمد بن محمد (ت: ١٠٨٩هـ).

٢٢. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، ط١،(بيروت : ١٩٨٦م) .

❖ ابو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن علي (ت: ٧٣٢هـ).

٢٣. المختصر في أحياء البشر ، المطبعة الحسينية ، ط١، (القاهرة : د . ت)

❖ ابن قدامة ،عبد الله بن احمد المقدسي (ت: ٦٢٠هـ).

٢٤. المغني في فقه الامام احمد بن حنبل الشيباني ، دار الفكر، ط١،(بيروت : ١٤٠٥)

❖ القلقشندي، احمد بن علي (ت: ٨٢١هـ).

٢٥. صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق : عبد القادر زكار ، وزارة الثقافة ، (دمشق: ١٩٨١ م)

❖ ابن قيم الجوزية ، محمد بن ابي بكر بن ايوب (ت: ٧٥١هـ).

٢٦. احكام أهل الذمة، تحقيق: يوسف بن احمد شاكر بن توفيق، رمادي للنشر،ط١، (الدمام : ١٩٩٧) .

❖ ابن كثير، ابو الفداء اسماعيل بن عمر(ت: ٧٧٤هـ).

٢٧. البداية والنهاية ، تحقيق :عبد الله بن عبد المحسن، دار الهجر للطباعة ، ط١ (القاهرة : ١٩٩٧)

❖ المقريزي، تقي الدين أبي العباس احمد(ت: ٨٤٥هـ).

٢٨. السلوك لمعرفة دولة الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، (بيروت : ١٩٩٧ م).

❖ ابن منظور، عمر بن مكرم (ت:٧١١هـ).

٢٩. لسان العرب ، (بيروت :١٩٥٦ م)

❖ الهمذاني ، رشيد الدين فضل الله (ت: ٧١٨هـ).

٣٠. جامع التوراريخ ، دار أحياء الكتب العربية ، (القاهرة : د . ت) .

❖ ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت: ٦٧٩هـ).

٣١. مفرج الكروب في أخبار النبي أيوب ، تحقيق : حسين محمد ربيع ، (القاهرة : د. ت).

❖ الواقدي، محمد بن عمر بن واقد(ت: ٢٠٧هـ).

٣٢. فتوح الشام ، دار الكتب العلمية ، ط ب١ ، (بيروت : ١٩٩٧) .

❖ ابن الوردي ،عمر بن مظفر بن عمر(ت: ٧٤٩هـ).

٣٣. تاريخ ابن الوردي ، دار الكتب العلمية ، (بيروت : ٢٠٠٠) .

❖ ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء (ت: ٧٧٤هـ).

٣٤. البداية والنهاية ، مكتبة الصفاء ،(القاهرة : ٢٠٠٣ م) .

❖ اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب بن جعفر (ت:٢٩٢هـ).

٣٥. تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ، (بيروت : د : ت)

ثانياً : المراجع الحديث.

❖ حتي ،فيليب ، وآخرون .

٣٦. تاريخ العرب المطول ، ترجمة : ادوارد جرجي وجبرائيل جبور ، (بيروت : ١٩٦٥م)

❖ حمودة ، طاهر سليمان .

٣٧. السيوطي عصره وحياته واثاره وجهوده في الدرس اللغوي ،المكتبة الاسلامية ، ط١،(بيروت: ١٩٨٩).

❖ الزركلي ، خير الدين بن محمود بن محمد .

٣٨. الأعلام ، دار اعلم للملايين ، ط ١٥ ، (بيروت : ٢٠٠٢) .

❖ شتور،.أ.

٣٩. التاريخ الأقتصادية والأجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى ، ترجمة : عبد الهادي عبلة ، (دمشق : ١٩٨٥م).

❖ الصفدي، رزق الله منقريوس .

٤٠. تاريخ دول الإسلام ، مطبعة الهلال ، (القاهرة : ١٩٠٨ م).

❖ عاشور ، سعيد عبد الفتاح .

٤١. مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دارالنهضة العربية، (القاهرة : ١٩٦٢ م).

❖ العبادي ،احمد مختار.

٤٢. قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، مؤسسة شباب الجامعة ، (الأسكندرية : ١٩٨٢ م)

❖ نويهض ، عادل

٤٣. معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر ، مؤسسة نويهض ، ط٣ ، (بيروت : ١٩٨٨ م) .

ثالثاً: المراجع الاجنبية.

Stanly Lohe – pool

History Of the Egpt in middle Ages , (London : 1968) .